أكسر قوقعتك وفكر بطريقة مختلفة (1/2)

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 1يوليو 2018

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

منذ عهد بطليموس، وهو الرياضي وعالم الفلك والجغرافيّ والمنجم الإغريقي، ويعتقد أنه ولد عام 87 ميلادية، وهو صاحب كتاب (المجسطي) الذي تدور فكرته على أساس أن الأرض ثابِتة، وأن الأفلاك والشمس هي التي تدور حولها حتى حوالي عام 1600 ميلادية كان الغرب يعتقد اعتقاداً جازماً لا مجال للشك فيه أن الأرض فعلاً مسطحة وأنها هي مركز الكون وما النجوم والأفلاك والشمس إلا أجرام تدور حول الأرض، وكان هذا هو الاعتقاد السائد في جميع أرجاء أوربا، والويل والثبور لمن يقول عكس ذلك، إذ تتصدى له الكنيسة بكل سلطاتها حتى تمحيه من الوجود.

ولكن في أواخر مايو أو بدايات يونيو من عام 1543 سُلطت الأضواء على كتاب بعنوان (حول دوران الأجرام السماوية) للراهب وعالم الرياضيات والفيلسوف والفلكي والقانوني والطبيب والإداري والدبلوماسي والجندي البولندي نيكولاس كوبرنيكوس (19 فبراير 1473 – 24 مايو 1543) وذلك قبيل وفاته بعدة أيام.

وكانت خلاصة هذا الكتاب تقول إن الشمس هي مركز هذه المجموعة من الكواكب التي من بينها كوكب الأرض، وأن الأرض

تدور حول نفسها، وأن القمر يدور حول الأرض، وأن الأرض والكواكب الأخرى كلها تدور حول الشمس. وكان هذا التفكير خروجا عن العرف السائد في ذلك الوقت، لذلك لم ير بحثه النور خوفًا من غضب الكنيسة والعرف العام حتى قبيل وفاته أو يوم وفاته بحسب بعض المراجع، ولكن هذا البحث كان انطلاقة جديدة في التفكير الإنساني.

ولكن ماذا فعل كوبرنيكوس ؟ ولماذا فعل ذلك ؟

في الحقيقة لم يكن كوبرنيكوس هو الوحيد وإنما برز العديد من العلماء في عصر النهضة الأوروبية مثل الدنماركي تيخو براهي، والألماني كبلر، والإيطالي جاليليو والإنجليزي نيوتن وغيرهم الكثير، كل هؤلاء فكروا وكسروا القوقعة التي كانت مفروضة عليهم وخرجوا منها يبحثون عن فكر جديد وفكروا بطريقة مختلفة، لذلك وجدوا ضالتهم وغيروا الواقع الذي كانوا يعيشون فيه، عندئذ برزت شمس الحضارة الحديثة بعيداً عن الأساطير والخرافات.

ولقد سجل التاريخ في سجلاته المئات من المفكرين والعلماء الذين خرجوا عن قوقعة المجتمع الذي عاشوا فيه، ووقفوا ضد تيارات الفكر الظلامي والمنحرف، ولم تكن الأمور سهلة، فالكثير منهم سجنوا ونفوا في الأرض والعديد منهم قضى حياته ومضى شهيداً وبقيت ذكراه أطول من ذكرى شانقه، وعلى رأس كل هؤلاء

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الذي لم يغير المجتمع الذي يعيش فيه وإنما غير الكرة الأرضية كلها، وكذلك لا يمكن أن ننسى الشيخ أحمد بن حنبل وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم الكثير الذين يصعب علينا حصرهم ولكن سجلات التاريخ لن تتساهم، كل هؤلاء ببساطة – ومرة أخرى نقول – كسروا القوقعة التي يعيشون فيها وفكروا بطريقة مختلفة، حينئذ خلدهم التاريخ بعدما توصلوا إلى تلك الحقائق المبهرة التي غيرت مجرى التاريخ.

بهذا الأسلوب وبهذا الفكر أتحدث مع المتدربين إن لم يكن في كل الدورات التدريبية التي أقيمها فإنه يكون في معظم تلك الدورات، وخاصة في الدورات التي نتحدث فيها عن طرق التفكير الإبداعي والابتكاري، والتأليف والكتابة وما إلى ذلك من موضوعات تستحق.

وليس الغرض من ذلك التمرد على تقاليد المجتمع وفكره من أجل التمرد فحسب، وإنما في عالمنا العربي اليوم نحتاج إلى فكر تنويري جديد مبني على أسس ثابتة متينة ولكنها متحررة نوعًا ما من قوقعة الفكر القديم حتى يمكننا أن نضاهي بقية الأمم في تطورها وبروزها على المستوى العالمي.

في الثمانينيات حينما كنت أحضر لدرجة الماجستير، كنت أعمل على المجهر الإلكتروني من خلال شرائح متناهية الدقة والرقة

لبعض الفطريات وذلك لدراسة المكونات الداخلية لهذه الفطريات، وذات مرة كنت أتحدث مع الفني المسؤول عن مختبر المجهر الإلكتروني حول التفكير الغربي والتفكير العربي وعصر التكنولوجيا الذي نعيشه ويعيشونه، وفي النهاية قال الأخ الفني: «لا يوجد فرق بيننا وبينهم، ربما مجرد 8 سنوات، وذلك قياساً على وجود المجهر الإلكتروني، إنهم يستعملونه من عدة سنوات، وبعدها بثماني سنوات تقريبًا أدخل المجهر إلى دولنا وقمنا باستخدامه خير قيام».

فقلت له ببساطة: «الفرق هو أنهم من اخترع المجهر ونحن –فقط– استوردناه، من غير أن نبذل جهداً».

وإن كنت أنا لست من مناصري الغرب ولا من محبيه، فهم يعانون ويتوجعون أخلاقيًا وحضاريًا أكثر مما نعاني، لكن من ناحية التفكير وترك مساحة للتفكير فهذا شيء نعاني منه نحن في هذا الجزء من العالم، فكم من مدرسة في الوطن العربي تشعل الرغبة في التعلم والبحث لدى الطلاب، وكم من مدرسة تقدم المعرفة بأسلوب جديد يجذبهم إلى معلميهم وإلى المدرسة وإلى التعليم، ومثل هذه الأسئلة التي نجد أنها مشروع ويجب أن تناقش وأن نعيد النظر فيها، فلو كان ذلك من خلال المدارس والقنوات التعليمية الصحيحة، فإن ذلك حتمًا سيكون أفضل مئات المرات من التمرد على تلك القنوات؛ لأنها لا تتيح للإنسان كل تلك المساحة للتفكير.

ومرة أخرى نحن هنا لا نطالب بالتمرد على الأعراف ولا التقاليد ولا الشرائع والتشريعات، لكننا نحتاج أن نترك مساحة للتفكير خارج الإطار المألوف، ليس ذلك فحسب وإنما نريد من الجهات الرسمية – نفسها – أن تتبنى كل تلك الأفكار والاطروحات وتحتضنها في محاضن من أجل الاستفادة القصوى منها؛ فكم من مخترع استطاع أن يبتكر أو يطور رجلاً آليًا ولم يجد من يتبناه، وكم من مؤلف كتب مؤلفًا ولم يجد دار النشر التي تتبنى كتابه، وكم من مفكر تمكن من التوصل إلى نظريات وأفكار لو وجدت الطريق إلى أرض الواقع لاستطاعت أن تغير كثيرا من واقعنا وعالمنا، ولكن كل تلك الأفكار والمنتجات تم دهسها وسحقها، ليس لشيء وإنما لأنها لا تناسب هذا الواقع الذي نعيش فيه.

في عالمنا العربي تتحطم الأفكار والعقول على صخرة الواقع الذي نعيش، بالتالي يتولد لدى الأجيال الناشئة – بصورة عامة – الإحباط والانهزامية، ليولد هذا الواقع لجيلنا نوعين من البشر: جيل مسحوق يركن الى الواقع كما هو، وجيل متمرد يعيش خارج القنوات الرسمية وبالتالي يسبب كثيرا من الفوضى والتمردات والمشاكل، وربما تتحول هذه المشاكل من مجرد الرغبة في التفكير وتحقيق الذات إلى مشكلات سياسية وما يتبعها من أمور كثيرة.

حسنا، كيف نفعل حتى نساعد جيلنا الجديد ليكسر قوقعته ونترك له مساحة للتفكير حتى يفكر بطريقة مختلفة ؟ ماذا يمكن أن تقدم الحكومات لتأخذ بيد هذا الجيل وتستثمره وتستثمر

قدراته وتفكيره إلى أحد الحدود ؟ وماذا يمكن لأفراد هذا الجيل وتلك الشخصيات أن تفعل، وكيف يمكنها أن تستثمر نفسها وتكسر قوقعتها لتخرج كل ما لديها من قدرات وإمكانيات لتخدم نفسها ووطنها، وتعيش في النور وتحت الشمس ؟

نعتقد أن الموضوع ذو شقين، الشق الأول هو ما يتعلق بالجهات المسؤولة كلها من غير استثناء، والشق الآخر يتصل بالشخص نفسه، وكيف يحرر نفسه. لنحاول أن نلقي بصيصا من الضوء على الشقين. لنبدأ بالشق المتعلق بالجهات المسؤولة والتي نعتقد أنها مقسمة إلى ثلاث جهات، هي: وزارات التربية والتعليم – الأندية وجمعيات النفع العام – القطاع الخاص.

وزارات التربية والتعليم: قلنا مراراً إن عمل وزارات التربية والتعليم يجب ألا ينتهي بانتهاء السنة الدراسية الرسمية وذلك في مرحلة الصيف، وإنما يقع على كاهلها عبء كبير، إذ إن عليها أن تفتح بعضًا من مدارسها وفصولها الدراسية للأنشطة الصيفية التي يجب أن تقيمها للراغبين في الاشتراك، على أن يتم ذلك بعيداً عن المناهج الدراسية الاعتيادية.

فليس من المعقول أن تغلق المدارس وهي مساحات كبيرة، وفصول دراسية، ومكتبات، ومختبرات وطاقات استيعابية يمكن من خلالها أن نقيم العديد من الأنشطة الصيفية الابتكارية والإبداعية، يمكنها أن تقيم برامج تدريبية ابتكارية في صناعة

الأجهزة بمختلف أنواعها، يمكنها أن تعطي مساحة للراغبين في الابتكار من خلال أجهزة الحاسوب، يمكنها أن تعطي مساحة للقراءة والكتابة وعمل البحوث النظرية أو الفكرية وربما كتابة الاطروحات بكل صورها وأشكالها ففي العديد من المدارس مكتبات وكتب، فلماذا نترك كل هذه الموارد من غير استثمار ؟

مدارس وزارات التربية والتعليم إلى هذه اللحظة لا تعمل إلا بنصف طاقتها وقدراتها الاستيعابية، نحن نريد من مدارس وزارات التربية أن تكون هي المحضن الحقيقي لكل شباب وشابات الجيل القادم، نريدها أن تتحول إلى أندية صيفية، وألا تغلق أبوابها صيفًا ولا شتاءً، نريدها أن تقدم كل قدراتها وإمكانياتها، فمبنى واحد للموهوبين لا يمكنه أن يستوعب كل الطاقات الشبابية المفكرة والمبدعة في البلاد، علمًا أن هذا الأمر ليس مستحيلاً وإنما هذا الموضوع يحتاج فقط إلى رغبة من المسؤولين للقيام بهذا العمل، وتخطيط، وتسخير بعض الإمكانيات الموجودة أصلاً في المدارس والمعاهد.

الأندية وجمعيات النفع العام: تمتلك جمعيات النفع العام والأندية الطاقات البشرية التي يمكنها أن تقف مع وزارة التربية والتعليم في تقديم الأنشطة الصيفية، فإن لم تكن تستطيع هي في حد ذاتها أن تقدم للشباب والشابات مثل تلك الأنشطة الإبداعية والابتكارية فيمكنها من خلال طاقاتها وإمكانياتها البشرية أن تساعد الجهات المسؤولة عن الشباب في احتضانهم

وتنمية القدرات الإبداعية لديهم، فماذا يمكن أن يحدث إن تعاونت هذه الأندية والجمعيات مع وزارة التربية والتعليم في عمل وإدارة برامج تدريبية وبرامج إبداعية وابتكارية تنمي كل تلك القدرات وتحفظها من التسرب والانتماءات غير المرغوبة ؟

القطاع الخاص: يمتلك القطاع الخاص كثيرا من الإمكانيات وخاصة المادية، وفي بلادنا لم يسهم القطاع الخاص إلا ربما بنسبة يسيرة جداً من المدخول السنوي في عمليات الاستثمار، لماذا ؟

أين تذهب كل أرباح هذه الشركات والمؤسسات والمصانع ؟ هل تسهم في تطوير البلاد والسكان وشباب البلاد.. وكيف ؟ لماذا لا يفرض على هذه المؤسسات أن تشارك ولو بنسبة معينة في إقامة البرامج الصيفية ؟ وإن لم تستطع ذلك فعلى الأقل أن تتبنى تلك المؤسسات بعضًا من هؤلاء الشباب وتقيم لهم برامج صيفية في نفس المؤسسة ؟ لماذا لا يحدث ذلك ؟

أجد أن مثل هذا الموضوع يستحق التفكير، وطبعًا هذه ليست كل الجهات، بل إن في الدول العربية العديد من الجهات التي يمكنها أن تقدم أي صورة ممكنة، فنحن نتحدث عن جيل قادم والمطلوب منّا أن نخرجهم من القوقعة المجتمعية التي نحن صنعناها وبنيناها عليهم.

ومازال للموضوع بقية، إذ يجب أن نساعد الجيل الشاب على كسر قوقعته والتفكير بطريقة مختلفة.